الإحالة ودورها في التماسك النصي

قصيدة "باخرة الموت" لمحمد العيد آل خليفة -أنموذجا-

أ. الطيب العزالي قواوة جامعة -تبسة

ملخص:

سنتناول في هذا المقال الإحالة باعتبارها من أهم آليات الاتساق النصي، ومن أبرز المعايير النصية المساهمة بشكل فعّال في تحقيق الكفاءة النصية؛ حيث تحيل إلى العلاقات المعنوية القائمة داخل النص، فتصنع جسورا كبرى للتواصل بين أجزائه المتباعدة، فتصيّر هذه الأجزاء متماسكة، مشكّلة بذلك كلّا موّحدا تتفاعل عناصره لتؤدي وظيفة معيّنة.

وهذا الكل الموحّد هو النص الأنموذج: قصيدة "باخرة الموت" لشاعر الجزائر"محمد العيد آل خليفة"، الذي واكب شعره نهضة الجزائر الحديثة، فهو قلبها الخافق ولسانها الناطق وترجمانها الصادق.

Résume:

La Référence et son rôle dans la Cohésion Textuelle

Poème de "*Bakhirat* Al-mout", "Le Bateau de la mort " de *Mohamed Laïd Al-Khalifa*

Nous allons étudier dans cet article La Référence comme l'un des mécanismes et des critères les plus importants dans la cohésion textuelle, qui contribue efficacement à la réalisation de la compétence textuelle, ce qui se réfère aux relations morales existes au texte. Il constitue des principaux ponts de communication entre ses parties divergentes, qui deviennent cohérentes formant ainsi un ensemble unifié dont ses éléments interagissent pour exécuter une fonction particulière.

Cet ensemble unifié est le texte de modèle : Poème de "*Bakhirat* Al-mout", "Le Bateau de la mort " de *Mohamed* Laïd *Al-Khalifa*. Sa poésie accompagnait la renaissance de l'Algérie moderne, elle

constitue son cœur palpitant et sa langue d'expression et son sincère interprète.

الإحالة: (Reference)

أ- مفهومها:

ما ندعوه إحالة يُعبَّر عنه بشكل عام في اللغة الفرنسية بـ(Référence)، وفي الانجليزية بـ(Reference)، نسبة إلى (Référent) في الفرنسية، و(Referent) في الانجليزية، وما يوازي مرجع في العربية .

فأول تساؤل يتبادر إلى الأذهان هو: هل الإحالة هي المرجع ؟، وهل لهما نفس الدلالة ؟

يشير "ماري نوال غاري بريور" (Marie-Nöelle Gary-Prieur) أنه « ينبغي أنْ لا نخلط بين مصطلحي الإحالة والمرجع، حتى وإنْ ثبت أحيانا استعمال كل منهما للدلالة به على الآخر، يشير مصطلح "المرجع" إلى موضوع خارج - لساني؛ فاللسانيات لا تهتم بمعالجة المرجع وفحصه. وذلك على خلاف الإحالة؛ التي تمثل جانبا من اهتمامات اللسانيات بوصفها تشتمل في علاقتها الثنائية، مفردات تأخذ في الأساس شكلا لسانيا »[1].

فهذا المصطلح "الإحالة" يثير مشكلا اصطلاحيا « إذ هي تعني تارة العملية التي بمقتضاها تحيل اللفظة المستعملة على الشيء الموجود في العالم، أي ما كان يسميه القدامى "الخارج"، وهي تعني تارة أخرى إحالة اللفظة على لفظة متقدمة عليها »[2]، وهي "العلاقة القائمة بين الأسماء والمسميات" - كما عرّفها جون ليونز - فهذه العلاقة ذات طبيعة دلالية تشترط تطابق الخصائص الدلالية بين العنصر المحيل والعنصر المحال إليه[3]، ذلك أن العناصر المحيلة غير مكتفية بذاتها من حيث التأويل بل تكتسي دلالاتها بالعودة إلى ما تشير إليه[4]. لذا وجب قياسها على مبدأ التماثل بين ما سبق ذكره في مقام وبين ما هو مذكور في مقام آخر[5]، « ومن الواضح أنّ المتكلم غير مأخوذ في الاعتبار، مع أنه هو الذي يفعل ذلك »[6].

ويرى "أحمد عفيفي" أن التعريف الأكثر شمولية للإحالة هو قول "براون ويول": « أنّ الإحالة ليست شيئا يقوم به تعبير ما، ولكنها شيء يمكن أن يحيل عليه شخص ما باستعماله تعبيرا معيّنا »[7]، أما النموذج الأكثر دقة وتعبيرا وتمثيلا لهذا النوع من الإحالة فهو قوله تعالى: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ، وَمَا لَا تُبْصِرُونَ، إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ، وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ﴾[8]، فقارئ النص لتحديد المحال إليه أو المشار إليه في الضمائر الواردة في هذه الآيات الكريمات يحتاج إلى النظر خارج النص القرآني نفسه

فيتحدد المشار إليه من خلال المقام أو السياق أو المعارف السابقة، وعليه فإنّ (إنه) و(ما هو) تحيل إلى القرآن الكريم.

ب- أنـواعها:

جمع "الأزهر الزناد" حسب نوع المفسِّر أنواع الإحالة في قسمين[9]:

1- إحالة معجمية: (Lexophora): تجمع كل الإحالات التي تعود على مفسِّر دال على ذات أو مفهوم مفرد.

2- إحالة مقطعية أو نصية: (Texophora): تجمع كل الإحالات التي تعود على مفسِّر هو مقطع من ملفوظ (جملة، أو نص أو مركّب نحوي).

فهذا النوع الأخير من الإحالة (الإحالة النصية) يوليه الباحثان "هاليداي" و"رقية حسن" اهتماما خاصا، كونه يقوم بدور فعّال في اتساق النص مقارنة بالنوع الأول[10].

وقسّم هاذان الباحثان بدورهما الإحالة إلى إحالة بالضمائر (إحالة ضميرية)، وإحالة بأسماء الإشارة (إحالة إشارية)، وإحالة بأدوات المقارنة (الإحالة المقارنية)، وتفصيل كل نوع فيما يأتي:

ب-1) <u>إحالة الضمائر</u>:

أو ما يصطلح عليه أيضا "الإحالة بالإضمار" (Pronominalisation)، فالضمير يساهم مساهمة فعالة في تحقيق تماسك النص الشكلي والدلالي، لذلك اهتم به علماء النص المعاصرون من خلال توظيفه ليحيل إلى سابق أو إلى لاحق، فقد يحيل أحيانا إلى كلمة مفردة اسم، أو إلى جملة، أو إلى خطاب متكامل أو حتى إلى سياق مقامي خارج النص[11].

ونشير هنا إلى أنّ "محمد خطابي" أبرز من تخريجات المفسرين دور الضمير وأهميته في اتساق الخطاب القرآني وتماسكه لكونه يقوم بوظيفتين:

- الأولى: استخدام عنصر متقدم في خطاب سابق.
- الثانية: استخدام مجموع خطاب سابق، في خطاب لاحق[12].

ويؤكد اللغويون المحدثون على « دور السياق في معرفة مرجعية الضمير، خاصة إذا كان الضمير غامضة مرجعيته، وكذلك إذا كانت مرجعيته خارجية؛ لأنّ المرجعية الخارجية تعتمد على سياق الحال »[13].

وتتفرع هذه الضمائر إلى:

- ضمائر وجودية، مثل: أنا، نحن، أنت، هو، هي ... الخ.
- ضمائر ملكية، مثل: كتابـي، كتابـك، كتابـه ... الخ.

وتقسم هذه الضمائر حسب دورها في عملية التخاطب إلى[14]:

- ضمائر لها دور في عملية التخاطب: وهي الدالة على المتكلم والمخاطب، وهي بالأساس عناصر محيلة إلى خارج النص (إحالة مقامية)، فتحقق بذلك التناسق النصي، ولا تصبح إحالة إلى داخل النص (إحالة نصية) إلا عرضا - في الكلام المستشهد به أو في خطابات مكتوبة متنوعة، مثل الخطاب السردي - فيكون لها أيضا دور في تحقيق تماسك النص.

- ضمائر لا دور لها في عملية التخاطب: وهي الضمائر الدالة على الغائب، فهي أساسا عناصر ذات إحالة مقالية، وبالتالي لها دور في تحقيق تناسق النص، وقد تكون عرضا ذات إحالة مقامية، وبالتالي يبطل دورها في تحقيق تماسك النص.

ب-2) <u>إحالة أسماء الإشارة</u>:

عُني النحاة منذ القدم بالأسماء المبهمة ونظروا إليها من زاويتين، زاوية عامة بإطلاق عبارة الأسماء المبهمة على جميع الأسماء التي تشترك في الإبهام، ومن زاوية خاصة اعتبارها ترادف أسماء الإشارة دون غيرها[15]، وقد صنّف "المبرد" (ت285هـ) أسماء الإشارة في الضرب الرابع من التعريف في قوله: « ومن المعارف الأسماء المبهمة، وإنما كانت كذلك لأنها لا تخلوا من أحد أمرين: إما كانت للإشارة نحو: (هذا) و(ذاك)، وأما ما كان يدنو منك من المذكر فإنك تقول فيه (هذا)...وما كان من هذا متراخيا عنك من المذكر فهو (ذاك)، وتقول في الجمع الحاضر (هؤلاء) والمتراخي تقول فيه (أولئك)، لأن (الكاف) إنما تلحق للمخاطبة على ما كان للحاضر فتكون فصلا بينهما »[16]، كما عدّد "سيبويه" (ت180هـ) أسماء الإشارة في قوله: « هذا وهذان وهذه وهاتان وهؤلاء وذلك وذانك وتانك وتيك، وأولئك، وهو وهي، وهما، وهُم وهُنّ، وما أشبه هذه الأسماء »[17].

وأما دور هذه العناصر فينحصر في تعيين المرجع الذي تشير إليه، وهي بذلك تضبط المقام الإشاري (Deictic Context)[18].

وقد عرّف "هاليداي" و"رقية حسن" هذا الضرب من الإحالة بكونها إشارة لفظية (Verbal pointing)، وصنفاها إلى صنفين[19]:

- صنف الإشارة المحايدة: وتكون باستعمال (The)، أي ما يوافق في العربية أداة التعريف (الـ).

- وصنف الإشارة الانتقائية: وتصنف عناصره حسب الظرفية بنوعيها: الزمانية مثل: (الآن، غدا...)، والمكانية مثل: (هنا، هناك ...)، أو حسب القرب والبعد، فالقرب مثل: (هذا، هذه ...)، والبعد مثل: (ذاك، ذلك، تلك ...). فوظيفة هذه الأسماء بمختلف أصنافها

تقوم بالربط القبلي والبعدي مثلها مثل الضمائر، ومن ثم تسهم في اتساق النص وربط أجزائه .

وأما عن أركان الإشارة (Deixis) فيرى "الاستراباذي" (ت686هـ) أنّ اسم الإشارة في الأصل مشار به للمخاطَب إلى شيء، فهو في أصل الوضع لغير المخاطب، ولهذا يؤتى فيه بحروف الخطاب كما يجيء في بابه فتحوشي في بعض الأماكن من أن يدخله حرف يجعله مخاطبا أي حرف النداء[20].

فمن خلال هذا القول أركان الإشارة هي كما يأتي[21]:

- مشير = المتكلم.
- مشار له = المخاطَب.
- مشار إليه = الشيء في الخارج (وقد يبين مدلولا عليه باسمه).
- مشار به = أداة الإشارة، أي أسماؤها.

فإذا توافرت هذه الأركان وتم الإجراء حصلت الإشارة (Deixis).

وحري بالذكر -هنا- أنّ علماء التفسير، ومن بعدهم علماء النص أشاروا عند تعرضهم لهذا النوع من الإحالة إلى تعدد المشار إليه أو عدم تطابقه مع اسم الإشارة[22]، ومثال ذلك ما جاء عند "الزمخشري" (ت538هـ) في تفسيره للإشارة الواردة في قول العليم الحكيم: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُون ﴾[23]، حيث يقول: إنّ اسم الإشارة: « (ذلك) إشارة إلى إحياء القتيل أو إلى جميع ما تقدّم من الآيات المعدودة »[24]. فالإشارة إلى القتيل هي نوع من إحالة عنصر إلى عنصر، والإشارة إلى أيام معدودات هي إحالة إلى خطاب مكون من عدة آيات[25].

وأما عن مسألة عدم التطابق بين المشير والمشار إليه فيقول "الزمخشري" أيضا: « فإن قلت: لِمَ قيل: (تلك أمانيهم)، وقولهم: (لن يدخل الجنة ...) أمنية واحدة؟ قلت: أشير بها إلى الأماني المذكورة، وهو أمنيتهم أن لا ينزل على المؤمنين خير من ربهم، وأمنيتهم أن يردّوهم كفارا، وأمنيتهم أن لا يدخل الجنة غيرهم: أي تلك الأماني الباطلة أمانيهم »[26].

يعلق "محمد خطابي" على قول "الزمخشري" ويبين سبب مشروعية طرح السؤال وهو التباعد بين آيات الأماني التي وردت في سورة البقرة، فالأمنية الأولى وردت في الآية 105 من قوله تعالى:﴿ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾، ووردت الثانية في الآية: 109 من قوله تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ

كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾، بينما وردت الأخيرة في الآية: 111، بينما ورد اسم الإشارة (تلك) في آية مستقلة بذاتها في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾، فإذا اقتصرنا في البحث عن المشار إليه في هذه الآية وحدها دون سواها حصل عدم التطابق بين الإشارة التي جاءت بصيغة الجمع المؤنث، وبين المشار إليه المفرد، وهذا ما جعل "الزمخشري" يلجأ إلى تعداد بقية الأمنيات السابقة عن هذه الأمنية الأخيرة[27].

ب- 3) إحالة أدوات المقارنة: (Comparative reference)

أو الإحالة المقارنية، فالنحاة والبلاغيون العرب القدامى عنوا بظاهرة المقارنة والتفصيل فيها خاصة تحت باب التفضيل[28]، فهي من منظور الاتساق لا تختلف عن الضمائر وأسماء الإشارة في كونها نصية، وبذلك فهي تقوم بوظيفة اتساقية[29].

أما في الدراسات الحديثة فنجد "هاليداي" و"رقية حسن" قد صنفا الإحالة المقارنية إلى صنفين:

أ- المقارنة العامة: (General comparison)

وتقع بين محوري التشابه والاختلاف دون الأخذ في الحسبان صفة معينة، فالمقارنة قد تأخذ شكل التطابق أو التشابه أو الاختلاف.

مثال 1: إنها نفس القطة التي رأيناها أمس.

مثال 2: إنها قطة مشابهة لـ (مختلفة عن) تلك التي رأيناها أمس.

ب- المقارنة الخاصة: (Particular comparison)

وتعبّر عن قابلية المقارنة بين شيئين في صفة معينة سواء من حيث الكم أو الكيف.

مثال 3: إن الكلب الصغير ينبح بطريقة مزعجة مثل ذلك الكلب الكبير[30].

فالنوع الأول من هذه الإحالة نظر إلى المقارنة من خلال التطابق أو التشابه أو الاختلاف دون الاعتماد على صفة معينة على عكس النوع الثاني الذي اعتمد على صفة معينة في عملية المقارنة بالتركيز على معياري الكم أو الكيف أو هما معا، فالكم يظهر في المثال الثالث من خلال عبارة (الكلب الصغير، الكلب الكبير)، والكيف يظهر من خلال عبارة بطريقة مزعجة.

وتتفرع الإحالة المقارنة حسب المؤلفين إلى إحالة مقالية وإحالة مقامية، فالإحالة المقالية منها القبلية ومنها البعدية التي تسهم في الاتساق، أما الإحالة المقامية فلا تسهم فيه[31].

ويلاحظ "محمد الشاوش" أنّ "هاليداي" و"رقية حسن" وقعا في الخلط عندما تناولا ظاهرة المقارنة فقد جمعا « بين الإحالة من ناحية والتركيب في علاقته بالدلالة من ناحية أخرى، فما بدا لهما في المقارنة راجعا إلى الإحالة هو في حقيقة الأمر من مقتضيات البنية الدلالية للألفاظ والصيغ التي تستعمل في المقارنة والتفضيل، فمفردات من قبيل (مثل) و(شبه) وما جاء من الكلمات على صيغة التفضيل تقتضي دلاليا أو قل منطقيا بنية ثنائية، وبالتالي لا يجري استعمالها إلا في بنية تركيبية تتوفر فيها تلك الإثنينية بوجه من الوجوه »[32].

والمخطط الآتي يلخّص أنواع الإحالة عند "هاليداي" و"رقية حسن":

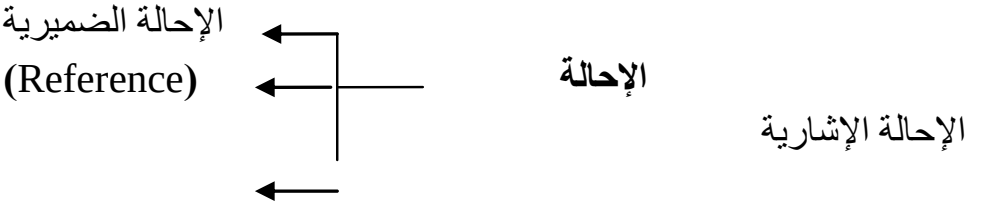

وبحسب المحال إليه قسّمت الإحالة أيضا إلى:

- **إحالة خارجية (مقاميه)** (Exophora)**:** وهي الألفاظ التي بمقتضاها تحيل اللفظة المستعملة إلى الشيء الموجود في الخارج[33]، حيث تسهم في تكوين النص باعتبارها تربط اللغة بسياق المقام[34]، فهي المرجعية التي تكسب النص، وفي ضوئها يُقرأ ويُفهم، ذلك أنها الإطار المرجعي الذي يؤلف مجموع الخبرات والمعارف التي تعمل على تشكيل النص[35].

وقد استعملها العرب القدامى خاصة المفسرون منهم عند انقطاع الروابط داخل النص القرآني حين لجأوا إلى أسباب النزول والظروف المحيطة[36]. فالإحالة المقامية إذن هي إحالة إلى خارج النص.

- **إحالة داخلية (نصّية)** (Endophora)**:** وهي إحالة اللفظة على لفظة متقدمة عليها[37]؛ أي أنها تركز على العلاقات اللغوية في النص ذاته، وقد تكون بين ضمير وكلمة أو كلمة وكلمة أو عبارة وكلمة[38]...الخ.

وتنقسم بدورها إلى:

1- إحالة قبلية (Anaphora)**:** وهي « التي تعود على مفسّر سبق التلفّظ به، وهي أكثر الأنواع دورانا في الكلام »[39]، فمن الوسائل التي تحققها استعمال الضمائر وأسماء الإشارة وأدوات المقارنة (التشبيه) وكلمات المقارنة: أكثر وأقل ... الخ، ولتوضيح ذلك نعطي نموذجا من القرآن الكريم يبين الإحالة القبلية[40] قال تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ، يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ، ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ، الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ، ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴾[41].

- الإحالة 1: ارتبط لفظ الجلالة (الله) بمجموعة من الإحالات البارزة: ضمائر(خلق، استوى، دونه، يدبر، أحسن، خلقه، سوّاه، نفخ).
- الاحالة 2: اسم الإشارة (ذلك عالم الغيب) إشارة إلى الله تعالى.
- الإحالة 3: اسم الموصول (الذي أحسن) تحيل قبليا إلى الله تعالى.
- النتيجة: حققت الآيات قدرا كبيرا من السبك النصي.

2- إحالة بعدية (Cataphora): وهي « استعمال كلمة أو عبارة تشير إلى كلمة أخرى أو عبارة أخرى سوف تستعمل لاحقا في النص أو المحادثة »[42]، فهي تعود على عنصر إشاري -كما عرّفها الأزهر الزناد- مذكور بعدها في النص وسابق عليها[43]، ويمثل لهذا النوع من الإحالة في العربية بنموذج واحد وهو ضمير الشأن[44] في مثل قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾[45]، فالضمير (هو) يحيل إلى ما بعده، أي إلى لفظ الجلالة (الله) ولا يسبق بشيء.

والفرق بين الإحالة المقامية (Exophora) والإحالة النصية (Endophora) - كما يراه "هاليداي" و"رقية حسن" - في كتابهما (الاتساق في اللغة الانجليزية) هو أن الإحالة المقامية تسهم في إنتاج النص، لأنها تربط بسياق المقام، في حين تقوم الإحالة النصية بدور فعال في اتساق النص، والذي أميل إليه أنّ كلا الإحالتين لهما دور فعال في ترابط وتماسك النص، فهما كالوجهان للعملة الواحدة وهي النص، فهما يتضافران في تحقيق اتساق وانسجام النص، أو بصفة عامة في تحقيق التماسك النصي داخليا وخارجيا، معجميا ودلاليا.

ويمكن الاستعانة بالشكل الآتي لتوضيح أقسام الإحالة:

الإحالة

إحالة داخلية (نصّية) Endophora إ حالة خارجية (مقامية) Exophora

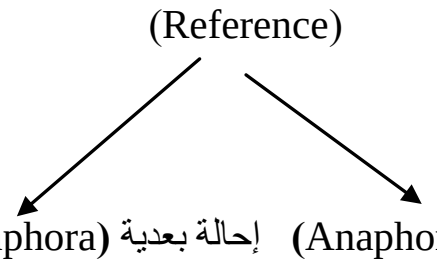

وفيما يلي تطبيق -ما ذكرناه آنفا- على قصيدة "باخرة الموت*" لشاعر الجزائر "محمد العيد آل خليفة" حيث سنبين دور هذه الآلية (الإحالة) في تماسك هذه القصيدة شكلا ودلالة.

إن هذه القصيدة هي الأولى في باب "الاجتماعيات والسياسيات" من ديوان شاعر الجزائر، وتضم تسعة وثلاثين (39) بيتا، بنسبة (4.07%) بدلالة بقية أبيات قصائد هذا الباب.

يقول الشاعر في مستهل قصيدته[46]:

عَلامَ يَظلُّ دَهْـــــــرُكَ مُسْتريبًـــا ؟ ♣ تُســـائِلُهُ ويـــأْبَى أنْ يُجِيبَـــــــا

وَيَغْضَـــى عَنْ شَكَاتِكَ مُسْتَخِـــفًّا ♣ كـــأَنّكَ فِي شَكـــاتِكَ لنْ تُصِيبَـــا

فَيَـــــاللهِ مِـــنْ دَهْـــــرٍ تَغافَـــــى ♣ عَنِ البَلوَى ولـــمْ يُبْصِرْ قَرِيبَـــا

ويـــــاللهِ مِـنْ دهْـــــرٍ تَجافَـــــى ♣ عَنِ الذِّكْـــرَى وأَكبَر أنْ يُنِيبَـــــا

نجد في هذه الأبيات أن الشاعر هو الذي قصد الإحالة في بداية هذه القصيدة، فاستخدم مجموعة من الضمائر، بدأت بالضمير المتصل الدال على المخاطَب، وهذا الأخير غير مذكور في النص، فالإحالة هنا إحالة مقامية، والذي يحدد لنا العنصر المحال إليه هو جميع الظروف والملابسات لهذا الخطاب، فالشاعر يخاطب الشعب الجزائري، ويتعجب من هذا الدهر من خلال أسلوب الاستفهام الذي يتملص من الإجابة في كل مرة.

ووظف الشاعر أيضا الضمير المستتر (هو) في الأفعال (يأبى، يجيبا، يغضى، تصيبا، تغافى، يبصر، تجافى أكبر، ينيبا) الذي يحيل إلى الدهر، والإحالة هنا إحالة نصية قبلية لوجود الدهر قبل ذكر الضمير، مع ملاحظة أن هناك تطابقا بين الضمير المكرر وما يشير إليه.

وفي هذه الأبيات نلمح أيضا عنصرا اتساقيا ساهم مساهمة كبيرة في تحقيق الكفاءة النصية للأبيات المذكورة وللقصيدة بصفة عامة، وهذا العنصر هو لفظ (الذكرى)، وهذه "الذكرى" ليست أي ذكرى!؛ لأن الذكرى المقصودة هي ذكرى المأساة والجريمة التي وقعت في سفينة "سيدي فرج"، والتي سماها الشاعر بباخرة الموت. فالإحالة هنا إحالة مقامية (إلى خارج النص)، وكما هو ملاحظ أن هذه الإحالة المقامية لم نجد لها وسيلة اتساق نحوية كالضمائر أو أدوات المقارنة مثلا، بل تحددت مقاميتها من خلال سياق ومناسبة الكلام.

ويقول الشاعر في البيتين: السابع عشر والثامن عشر[47]:

فَكَمْ مِنْ قَائِلٍ أَخْشَى وُحُوشًا ♣ تَدِبُّ بِأَرْضِ بَارِيسَ دَبِيبَا

وَكَمْ مِنْ قَائِلٍ أَخْشَى زُنوجًا ♣ تُبِيحُ القَتْلَ وَالذَّامَ المُعِيبَا

بالإضافة إلى الإحالة بالضمائر، نلحظ نوعا آخر من الإحالة يتمثل في الإحالة بأداة المقارنة من خلال اسم التفضيل (أخشى)، وتظهر هذه المقارنة في التقابل بين القائل الذي يذم ويعيب تصرف فرنسا تجاه الشعب الجزائري، وبين السلطة الفرنسية التي تواجه إحسان الجزائريين بالإساءة قولا وفعلا، ورغم هذه السياسة الاستعمارية الغشيمة تبقى فرنسا تخشى هذا الشعب الأبي الباسل.

وفي الأبيات الآتية يقول الشاعر[48]:

جُسُومٌ فِي (فِرُوشَ) مُجْدَلاَتٌ ♣ تُعَانِي تَحْتَهُ الغَازَ الرَّهِيبَا

وَأَجْسَادٌ مُمَزَّقَةُ الحَشَايَا ♣ تَكَادُ لَهَا النَّوَاصِي أَنْ تَشِيبَا

حَدِيدُ (فِرُوشَ) يُفْرِيهَا شَظَايَا ♣ وَعَزْفُ (فِرُوشَ) يُبْكِيهَا نَحِيبَا

يلحظ متأمل هذه الأبيات أن الشاعر كرّر عنصرا إشاريا محوريا (فروش) ليحيل به إحالة خارجية (خارج النص) إلى باخرة سيدي فرج التي وقعت فيها جريمة قتل اثني عشر عاملا جزائريا.

وفي الأبيات نفسها أيضا إحالة نصية قبلية إلى أجساد هؤلاء العمال باستخدام العناصر المحيلة الضميرية المتصلة بالأفعال، كالضمائر المستترة في (تعاني، تكاد، تشيبا)، والضمائر البارزة المتصلة بالفعلين (يفريها، يبكيها).

ويقول في البيت السابع والعشرين والثامن والعشرين والتاسع والعشرين[49]:

مُصَابٌ نَمْلأُ الدُّنيَا احْتِجَاجًا ♣ عَلَيْهِ عَسَى المُنَاوِئَ أَنْ يُنِيبَا

فَحَسْبُكَ أَيُّهَا الخَطْبُ المُفَاجِئَ ♣ لَقَدْ أَشْهَدْتَنَا اليَوْمَ العَصِيبَا

فَـــأَبْكَيْـــتَ الهِـــلاَلَ بِـــــهِ وَطَـــــهَ ♣ وَأَبْكَيْـــتَ إبِـــنَ مَـــرْيَمَ وَالصَّلِيـــبَـــــا

كذلك في هذه الأبيات يواصل الشاعر الحديث عن تلك المجزرة الوحشية بالإحالة إليها بالعناصر الإشارية المعجمية التالية: (مصاب، الخطب المفاجئ، اليوم العصيب). وفي البيت الأخير نلحظ إشارة الشاعر مقاميا إلى العقيدة الإسلامية من خلال العنصريين الإشاريين (الهلال) و(طه)، وإلى العقيدة المسيحية من خلال العنصريين الإشاريين (ابن مريم) و(الصليب)، فأكد الشاعر بأن رسالة العقيدتين رسالة سماوية واحدة تنبذ العنف والإجرام والاعتداء على أرواح الناس.

فتحقق بذلك التفاعل بين المتلقي والنص (مجموعة هذه الأبيات) من خلال إعادة اللفظ المحيل إلى ما يحيل إليه، وربطه بذلك الموقف الخارجي؛ ذلك الموقف الذي يحتاجه المتلقي لتأكيد الاستمرار الحقيقي مع النص.

ومنه نستنتج أن الإحالة المقامية ساهمت في خلق النص واتساقه بشكل غير مباشر؛ لأنها ربطت اللغة بسياق المقام، أما الإحالة النصية فلها الدور المباشر في ذلك.

وللمزيد من مواضع الإحالة بأنواعها** نقدم الجدول التالي:

رقم البيت	العنصر الاتساقي	وسيلة الاتساق المستعملة	نوع الإحالة	العنصر المحال إليه
01	تُسائله	ضمير متصل	إ- ن- ق	شعب الجزائر
02	كأنّك	أداة مقارنة (إحالة مقارنية خاصة)	إ- مقامية	شعب الجزائر
04	الذّكرى	-	إ- م	ذكرى المأساة والجريمة التي وقعت في سفينة سيدي فرج، وهي التي سماها الشاعر بباخرة الموت.
05	أنْ تَغيبا	ضمير مستتر (هي)	إ- ن- ق	البصائر
07	البلد الجريح	-	إ- م	الجزائر
//	ضاق	ضمير مستتر (هو)	إ- ن- ق	البلد الجريح
//	البلد الرحيبا	-	إ- م	فرنسا

09	باريس	-	إ- ن- ق	عاصمة فرنسا
//	يروق	ضمير مستتر (هو)	إ- ن- ق	العيش
10	قالوا	ضمير متصل	إ- ن- ق	العمال
//	إنّها	ضمير متصل	إ- ن- ق	باريس
13	اغْتدينا	ضمير متصل	إ- م	الشاعر محمد العيد يتكلم بلسان الشعب الجزائري
//	أهاب	ضمير مستتر (هو)	إ- ن- ق	مهيب الحرب
15	مسالِكها	ضمير متصل	إ- ن- ق	النواحي
16	تُصب	ضمير مستتر (هي)	إ- ن- ق	ضجة
//	عليهم	ضمير متصل	إ- ن- ق	العمال الجزائريون
17	تَدبّ	ضمير مستتر (هي)	إ- ن- ق	الوحوش من الاستعمار الفرنسي
18	تُبيح	ضمير مستتر (هي)	إ- ن- ق	الزنوج من الاستعمار الفرنسي
19	قُلْ	ضمير مستتر (أنت)	إ- ن- ق	القائل
//	أنيبوا وارتأوا	ضمير متصل	إ- ن- ق	القائمين على فرنسا
23	يُفريها	ضمير متصل	إ- ن- ق	الأجساد
24	فيهم	ضمير متصل	إ- ن- ق	مشائيم
//	مزّق	ضمير مستتر (هو)	إ- ن- ق	البؤس
25	كان	ضمير مستتر (هو)	إ- ن- ق	الإرهاق
//	لهم	ضمير متصل	إ- ن- ق	مشائيم
26	تَعصِف	ضمير مستتر (هي)	إ- ن- ق	ريح القرّ
30	سِرْ	ضمير مستتر (أنت)	إ- ن- ق	الخطب المفاجئ
//	مسامِعنَا	ضمير متصل	إ- ن- ق	مسامع الشاعر وغيره
34	رِثائِهم	ضمير متصل	إ- م	العمال الجزائريون الذين

				صُرعوا في باخرة الموت
35	يلفظ	ضمير مستتر (هو)	إ- ن- ق	القلب
//	تذْرِف	ضمير مستتر (هو)	إ- ن- ق	العين
36	الجزائر	-	إ- م	الدولة المحتلة المستعمَرة
//	فرنسا	-	إ- م	الدولة المستدمِرة المستعمِرة
37	تُناويك	ضمير متصل	إ- ن- ق	ظئر الجزائر
//	هي	ضمير منفصل	إ- ن- ق	الممالك
38	صُن	ضمير مستتر (أنت)	إ- ن- ق	ولد الجزائر
//	بِساحَتها	ضمير متصل	إ- ن- ق	الجزائر
39	فإني	ضمير متصل	إ- م	الشاعر
//	رأيتُ	ضمير متصل	إ- م	الشاعر

وجملة القول إن الإحالة الضميرية (باستخدام الضمائر) غلبت على هذه القصيدة؛ ولعل ذلك راجع إلى أن هذا النوع من الإحالة مناسب لطبيعة النص السردي المبني على وجود الصراع بين الأطراف الحاملة للأدوار الغرضية، ذلك أن الضمائر -كما يرى الأزهر الزناد- إذا نظرنا إليها من زاوية التماسك أمكن التمييز فيها بين أدوار الكلام التي تندرج تحتها جميع الضمائر الدالة على المتكلم، ومن جهة أخرى قد ساهمت هذه الضمائر في تشكيل المعنى الكلي للنص من خلال تموضعها داخله، وعلاقة المرجعية التي تحملها في كل موضع لأقطاب معيّنة (العمال الذين قتلوا في"باخرة الموت" الشاعر، الاستعمار الفرنسي) يرتكز عليها النص، ويجعلها حاضرة مستمرة مشكلة الدلالة العامة.

هوامش

1- ماري نوال غاري بريور، المصطلحات المفاتيح في اللسانيات، ترجمة: عبد القادر فهيم الشيباني، سيدي بلعباس، الجزائر، (د ط)، 2007، ص: 90.

2- ينظر: محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية تأسيس نحو النص، المؤسسة العربية للتوزيع، تونس، (د ط)، 2001، 1/ 125.

3- ينظر: محمد خطابي، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط: 1، 1991، ص: 17.

4- ينظر: محمد خطابي، المرجع نفسه، ص: 17.
5- ينظر: الأزهر الزناد، نسيج النص بحث في ما يكون الملفوظ نصا، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط: 1، 1993، ص: 118.
6- أحمد عفيفي، نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي، مكتبة زهراء الشرق،القاهرة، مصر، ط:1، 2001، ص: 116.
7- ج. ب. براون وج. يول، تحليل الخطاب، ترجمة: محمد لطفي الزليطي ومنير التريكي، ص: 36.
8- الحاقة: من 38 إلى 41.
9- ينظر: الأزهر الزناد، نسيج النص، ص: 119.
10- ينظر: محمد خطابي، لسانيات النص، ص: 17 - 18.
11- ينظر: خليل بن ياسر البطاشي، الترابط النصي في ضوء التحليل اللساني للخطاب، دار جرير للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط:1، 2009، ص: 167.
12- ينظر: محمد خطابي، لسانيات النص، ص: 175.
13- صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق دراسة تطبيقية على السور المكية، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط: 1، 2000، 1/ 165.
14- ينظر: محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب، 1/ 126.
15- ينظر: محمد الشاوش، المرجع نفسه، 2/ 1060.
16- المبرد (أبو العباس)، المقتضب، تحقيق: محمد عبد الخالق عظيمة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، (د ط)، 1306هـ، 17/ 277 - 278.
17- سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر)، الكتاب، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط: 3، 1988، ص: 77 - 78.
18- ينظر: الأزهر الزناد، نسيج النص، ص: 116.
19- ينظر: محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب، 1/ 128.
20- ينظر: الاستراباذي (رضي الدين محمد بن الحسن)، شرح كافية ابن الحاجب، قدّم له ووضع حواشيه وفهارسه: إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: 1، 1998، 1/ 387.
21- محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب، 2/ 1063.
22- ينظر: محمد خطابي، لسانيات النص، ص: 176.
23- البقرة: 74.
24- الزمخشري (أبو القاسم جار الله محمود بن عمر)، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، تحقيق: محمد الصادق قمحاوي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، محمد محمود الحلبي وشركاه، خلفاء، (د ط)، 1972، 1/ 290.
25- ينظر: محمد خطابي، لسانيات النص، ص: 177.
26- الزمخشري، الكشاف، 1/ 304 - 305.
27- ينظر: محمد خطابي، لسانيات النص، ص: 178.
28- ينظر: محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب، 1/ 130.
29- ينظر: محمد خطابي، لسانيات النص، ص: 19.
30- عزة شبل محمد، علم لغة النص النظرية والتطبيق، تقديم: سليمان العطار، مكتبة الآداب، القاهرة، ط: 1، 2007، ص: 124- 125.
31- ينظر: محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب، 1/ 129.

32- محمد الشاوش، المرجع نفسه، 1/129- 130.
33- محمد الشاوش، المرجع نفسه، 1/ 125.
34- ينظر: محمد خطابي، لسانيات النص، ص: 17.
35- ينظر: جمال مباركي، التناص وجمالياته في الشعر الجزائري المعاصر، إصدار رابطة إبداع الثقافة، حيدرة، الجزائر، (د ط)، (د ت).ص: 322.
36- ينظر: صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي، 1/ 41.
37- ينظر: محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب، ص: 125.
38- ينظر: صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي، 1/ 41.
39- ينظر: أحمد عفيفي، نحو النص، ص: 117.
40- ينظر: أحمد عفيفي، المرجع نفسه، ص: 118.
41- السجدة: من 4 إلى 9.
42- ينظر: صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي، 1/ 41.
43- ينظر: الأزهر الزناد، نسيج النص، ص: 119.
44- ينظر: خليل بن ياسر البطاشي، الترابط النصي في ضوء التحليل اللساني للخطاب، ص: 58.
45- الإخلاص: 1.

* باخرة الموت: كناية عن باخرة "سيدي فرج" باسم الثغر الذي أنزل منه أول جندي فرنسي من جنود الاحتلال الأول. وسماها الشاعر بهذا الاسم، وأضاف إليها هذه الإضافة (الموت)؛ ليحيلنا ويذكرنا بقصة أولئك العمال الذين ابتلوا -كما ابتلي الشعب الجزائري عامة- بجهنم الاستدمار الفرنسي لا يموتون فيها ولا يحيون؛ فجرّد هذا الاستعمار الجزائريين من كل أسباب الحياة، وتركهم حفاة عراة جياعا، وسجّل عليهم العبوديّة المؤبّدة للسادة الأوربيين، يعملون ليلا ونهارا من أجل رغيف من الخبز، وزاد وفتح لهم الطريق إلى فرنسا للعمل بسواعدهم لا بعقولهم في مصانعها...ففرّ هؤلاء العمال إلى فرنسا لارتفاع الأجور فيها نوعا ما، فأخفاهم صاحب الباخرة في عنابر سفلية مظلمة مشبّعة بالغاز، خالية من الهواء، وغلّق عليهم الأبواب حتى كادوا يصلون "مرسيليا" ففتحت عليهم الأبواب، فوجدوا أنه مات منهم أحد عشر رجلا مختنقا بالغاز...وافتضحت هذه الحقيقة الشنيعة فأثّر ذلك كله في نفس الشاعر ففاض بهذه القصيدة يصف المأساة ويتوجّع لها، وينعي على فرنسا هذه الجريمة القذرة. ينظر: محمد العيد بن محمد علي خليفة، ديوان محمد العيد آل خليفة، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، ط1، 2010، هامش ص:262.

46- محمد العيد بن محمد علي خليفة، ديوان محمد العيد آل خليفة، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، ط1، 2010، ص: 260.
47- محمد العيد بن محمد علي خليفة، ديوان محمد العيد آل خليفة، ص: 260-261.
48- الديوان، ص: 261.
49- الديوان، ص: 261.

** يرمز للإحالة النصية القبلية بالرمز (إ- ن- ق)، وبالرمز (إ- ن- ب) للإحالة النصية البعدية، وبالرمز (إ- م) للإحالة المقامية.